الفصل السادس عشر

انضمامي للجيش الأمريكي

بعد أن مضت سبعة أشهر على عملي مع الدكتور مجدي قام بتخفيض أيام عملي إلى ثلاثة أيام في الأسبوع، وأخبرني بعدم توافر المال الكافي لديهم ليدفعوا لي أكثر من ذلك، ولم تكن الدروس الخصوصية التي أعطيها تدر مالاً يكفيني لتعويض الفرق؛ لذلك أصبحت أقتصد كثيرًا لأتدبر أمري. كان هذا بالنسبة إلي دليلًا على أن روماندا محقة عندما نصحتني بالانضمام للجيش؛ لذلك اتصلت بالرقيب (باريرا) مجددًا، ورتبت موعدًا معه في يوم لا أعمل فيه في عيادة الدكتور مجدي، وأخبرت الرقيب (باريرا) بأنني مستعدة لنزع حجابي.

وفي أحد الأيام في شهر آذار من عام ٢٠٠٦م غادرت شقتي عند الساعة ٦:٠٠ صباحًا أرتدي قبعة زرقاء ونظارة شمسية، لم أستطع أن أخاطر بأن يراني مالك البناية أو الجيران غير مرتدية حجابي، وأضطر إلى مواجهة أسئلتهم. فقد كنت قد اشتريت هذه القبعة قبل يومين من كشك بقرب مترو الأنفاق، وأمضيت اليومين المقبلين أتدرب على ارتدائها بدلًا من حجابي، وكنت كثيرًا ما أرتدي قبعتي، وأنظر في المرآة وقتًا طويلًا، أتحمل ذلك الشعور بالقبح، يزداد داخلي عندما أرى نفسي أرتدي هذه القبعة الصبيانية، لكني بقيت أحدق في المرآة، حتى بدت لي فكرة الكشف عن شعري على الملأ شيئًا عاديًّا. بالطبع عندما أذهب إلى مكتب التوظيف في الجيش سأضطر إلى أن أنزع قبعتي أيضًا، لكن جعلني الانتقال من ارتداء الحجاب إلى ارتداء قبعة أشعر بحصانة أكبر.

ركبت الحافلة من برونكس إلى مانهاتن، ثم انتقلت لأركب في حافلة السفر المتجهة إلى نيوجيرسي، نزلت من الحافلة عند (شارع ماين) وذهبت إلى مقهى لأتناول بعض القهوة والكعك، وعند الساعة ٩:٣٠ تقريبًا غادرت المقهى، ونظرت من خلال النافذة لأنزع قبعتي ونظارتي الشمسية، ثم رتبت شعري بسرعة بأصابعي على أمل ألا يكون ممهدًا أو غير مرتب، وهكذا مشيت ورأسي مكشوف في وضح النهار، حيث يمكن لأي رجل وامرأة أن تراه.

مشيت مسافة نصف صف من البيوت تقريبًا، حتى وصلت مكتب الجيش، وقرعت الباب، ففتح الرقيب (باريرا) الباب، وابتسم لي مصافحًا يدي، ثم طلب مني أن أنتظر لحظة، واختفى في الخلف، ثم عاد بعد قليل، وقال لي:

«إذن أنت جاهزة هذه المرة يا فدوى!».

«نعم، أنا جاهزة».

«أنت تبدين جميلة».

«شكرًا لك».

«أتعلمين يا فدوى، كان اتصالك بي مصادفة غريبة سأنتقل إلى (تكساس) وكنت أنظف مكتبي طوال الأسبوع، وفي صباح اليوم الذي اتصلت بي فيه كنت أبحث بين بعض الأوراق، فوجدت البطاقة التي أعطيتني إياها، عندما التقينا أول مرة عام ٢٠٠٤م لم أفكر فيك منذ زمن طويل، وتساءلت ماذا تفعلين وماذا حدث لك في آخر سنتين؟ كدت أرمي البطاقة، لكني قررت أن أحتفظ بها، وفي تلك الليلة اتصلت بي، وسألتني إن كنت لا أزال أتذكرك!».

ابتسمت له، ثم عرفني على الرقيب (كلينار)، الذي سيتولى تجهيز معاملتي، عندما يغادر الرقيب (باريرا) صافح الرقيب (باريرا) يدي، ثم بدأنا الإجراءات. كان عليّ أن أريه شهادة ولادتي وجواز سفري وشهادات ولادة أطفالي وشهاداتي الدراسية، أحضرت كل شيء معي هذه المرة، فقال لي الرقيب:

«أوه، أنت حضّرت نفسك جيدًا».

بعد ذلك أعطيته عنواني الحالي ورقم هاتفي، ثم أخبرني بأن عليّ أن أخضع لاختبار أكاديمي يدعى (اختبار الكفاءة العسكري: ASVAB) الذي يشتمل على اختبارات في المهارات اللغوية والرياضية وأيضًا الكفاءة المهنية. وكان عليّ أيضًا أن أجتاز اختبارًا جسديًّا، وستقتضي كل هذه العملية ثلاثة أشهر.

لم أخبر أي شخص عن خططي باستثناء الأشخاص الذين أتعامل معهم في الجيش، وأيضًا الفتاة الهندية التي تعمل معي في العيادة.

لكن على الرغم من جهودي بأن أبقي نياتي سرًّا حصلت زلة لسان بشكل غير متوقع، فعندما رجعت إلى المنزل في إحدى الأمسيات وجدت رسالة على جهاز تسجيل المكالمات الهاتفية من إحدى زميلاتي في المركز العربي، حيث كنت أعمل قبل عام ونصف العام أنا وهي، قالت في الرسالة:

obeikandl.com

«فـدوى، أنا عوالــي هل تتذكرينني؟ كنا نعمـل مع بعض في المركز العربــي، أرجوك أن تتصلي بي بأسرع وقت، فأنا أريد أن أسألك عن شيء».

لم أعرف كيف حصـلت عوالي على رقم هاتفي، لكني اتصـلت بها، وتحدثنا بضع دقائق عـن أحـوال حياتنا، ثم سـألتها: كيف حصـلت على رقم هاتفي؟ اتضـح أن (جميلة) أفضـل صـديقاتي التي كانت تعيش في شـمال نيويورك ابنة خالتها، وقالت لي عوالي مراسلة صحفية مـن جريدة **نيويورك تايمز** اسـمها (أندريا إليوت) قد اتصـلت بعوالي، كانـت أندريا تجري مقابـلات وكتابة سلسـلة مقـالات عن معاناة المسـلمين بعد أحداث الحادي عشـر من أيلول، وسألت عوالي إن كانت تعرف امرأة مسلمة في الجيش؟، فذكرت عوالي اسمي.

«كيف عرفت يا عوالي، أنني سأنضم للجيش؟ فأنا لم أخبر أحدًا».

«ماذا تعنين بأنك ستنضمين للجيش؟ ألست في الجيش الآن؟ كنت أعتقد أنك انضممت للجيش عام ٢٠٠٤م».

كانت عوالي قد سـمعت من جميلة عن محاولتي الأولى بالانضـمام للجيش عام ٢٠٠٤م، لكنها لم تسمع بقية القصة، وكيف أخفقت محاولتي.

لكنــي على أي حال أخبرت عوالي بأن تعطـي رقمي لـ(أندريا). وفي اليوم المقبل عندما رجعت للمنزل من العمل تسـلّمت رسـالة على جهاز تسـجيل المكالمات الهاتفية من (أندريا) تطلب فيها أن تقابلني في أي مكان لتراني. لم أكن متأكدة من كل هذا الأمر؛ لذلك فكرت أنه من المناسـب أن ألتقي أندريا حتى أتعرف عليها قليلًا، وأكتشف المزيد عن الموضوعات التي تكتبها.

«أنا أتطلع بشوق لأن أقابلك يا فدوى. فقط أخبريني متى وأين».

كان مـن المفترض أن أذهب إلى متجر روماندا لأسـاعدها على اسـتخدام حاسـوبها، لذلـك اقترحـت علـى أندريـا أن نلتقي في مقهـى (سـتاربكس) بالقرب من متجـر روماندا. فارتديت حجابي، وجلسـت بالقرب من نافذة في مقهى ستاربكس. وهناك نظرت حولي أبحث عن شخص يمكن أن يكون أندريا، ورأيت أخيرًا امرأة تمشي متجهة نحوي، وقالت لي:

«فدوى؟».

openkandil.com

ابتسمت أندريا، وصافحت يدي، ثم أرتني بعض المقالات التي كتبتها عن المسلمين بعد الحادي عشر من أيلول.

«أنا أستمتع بمعرفة كيف يتعاملون مع هذه القضايا، وكيف أحوالهم. لقد تحدثت مع بعض الرجال المسلمين الذين انضموا للجيش هنا، لكني لم أقابل أي امرأة مسلمة في الجيش».

بدت أندريا صادقة فعلًا، فسرعان ما فتحت قلبي لها، وأخبرتها بأكثر الأشياء خصوصية وألمًا في حياتي، مثل خسران قضيه أطفالي وعدم تمكني من العثور على عمل جيد وطردي من شقة أخي.

«أتعلمين يا فدوى، أشعر فعلًا بالراحة معك، ويراودني شعور جيد حول هذا إن سمحت لي بأن أكتب عنك، فستقدمين لي معروفًا كبيرًا».

وافقت على إجراء مقابلات معها من أجل قصتي، فمن المحتمل أن تكون هذه فرصة جيدة لإطلاع الأمريكيين على جانب آخر من حياة المسلمين لا يراه معظمهم عادة. لكن على مستوى شخصي كنت أعرف أن الناس في جميع أرجاء العالم يقرؤون صحيفة **نيويورك تايمز**، ويمكن لأي شخص أن يقرأ عن كل شيء عانيته وسبب تركي لأطفالي. ففي حال أصابني مكروه ولم أرَهم مرة أخرى، فستظل أمامهم فرصة لمعرفة أنني أحببتهم من كل قلبي، وكنت لأعطيهم أي شيء يمنحهم السعادة، وستكون هذه بمنزلة رسالة الحب التي كتبتها لأطفالي قبل سنين عدة، عندما كدت أقتل نفسي، لكن هذه المرة دون قناعتي بأن حمزة سيتلفها، فحمزة لا يمكنه التحكم في صحيفة **نيويورك تايمز**. كنت أعرف أن عائلتي وأصدقائي لن يفهموا دوافعي، ويمكن أن يلومونني إن قرأ الناس المقال عن امرأة مسلمة دخلت الجيش الأمريكي، لكن احتمالية تواصلي مع أولادي جعل الأمر يستحق المخاطرة بأن تنبذني عائلتي.

وهكذا، وقبل ثلاثة أسابيع من موعد مغادرتي إلى ولاية (أوكلاهوما – تكسس) بدأت ألتقي أندريا لأخبرها بالمزيد عن قصتي. وعندما التقينا في المرة المقبلة ذهبنا إلى مطعم مغربي يدعى (البركة)، وجلسنا على طاولة خشبية ثمانية الأضلاع وبخلفية تتكون من ألواح خشبية مزخرفة ووسائد مطرزة بإتقان بخيوط زرقاء وحمراء وذهبية، كنا الوحيدتين في المطعم، لذلك نزعت حجابي، كنت سأتوقف عن ارتدائه، عندما أنضم رسميًّا للجيش، لكني كنت لا أزال أرتديه، عندما أغادر المنزل إلى أن يحين موعد مغادرتي من نيويورك.

خلال لقائي أندريا واستمراري في العمل عند الدكتور مجدي كان عليّ أيضًا أن أصقل مهاراتي في الرياضيات لأستعد لاختبار الكفاءة العسكري. عثرت على رجل يدعى (سيف) يعطي دروسًا خصوصية في الرياضيات، فاتصلت به، واتفقنا على أن يساعدني في التحضير للاختبار مقابل أن أعطي دروسًا في اللغة العربية لأطفاله. وكانت ابنته التي يبلغ عمرها تسع أو عشر سنوات تساعده أحيانًا على تعليمي، وكنت أعلمها اللغة العربية في المقابل، أخبرت أندريا عن لقاءاتي بسيف، فسألتني إن كان من الممكن أن تأتي لتحضر أحد دروسي لتتفرج وتلتقط بعض الصور؟ وبعد انتهاء أحد الدروس جلسنا على كرسيين هزازين في غرفة المعيشة لأتحدث معه.

«نعم، يا أختاه؟».

«أريد أن أفسر لك شيئًا حتى أطلب منك شيئًا».

أخبرته عما حدث بيني وبين أخي وعن خططي في الانضمام للجيش ومقابلاتي مع أندريا، وبذلت قصارى جهدي لأطمئنه أن أندريا لا تحاول أن تكتب معلومات سلبية عن الإسلام لتنشرها، وأنها لا تريد إلا أن تكتب عن تجاربي الشخصية وسبب رغبتي في الانضمام للجيش.

«سوف أكون ممتنة كثيرًا يا سيف، إن سمحت لها أن تلتقط صورًا، لكن الأمر بيدك».

نظر إلي بتمعن بضع لحظات قبل أن يجيب قائلًا:

«يؤسفني أن أسمع ما حدث لك مع أخيك ومع أطفالك، من المؤكد أن هذا مؤلم كثيرًا لك، لكن ماذا لو حرّفت أندريا قصتك، واستغلتها لتقول أمورًا سيئة عن الإسلام؟».

«لا أعتقد أنها ستفعل ذلك».

أخبرته عن المقالات الأخرى التي كتبتها أندريا ونشرتها، وبدا أنه اقتنع بذلك.

«حسنًا يا فدوى، يمكنها هي ومصورها أن يأتيا هنا لالتقاط بعض الصور».

حضرت أندريا ومصورها (جيمس) إلى حصة الرياضيات المقبلة في شقة سيف، تناقش سيف مع جيمس قليلًا، واتخذ جيمس ترتيبات حتى يقوم سيف بتعليم ابنه، وبعد قليل بدأنا الحصة، شرح سيف بعض المسائل الحسابية لي، وكتبها على السبورة في غرفة المعيشة، وكنت أدون الملاحظات. ثم التقط جيمس بعض الصور للحصة، بينما كانت أندريا تراقب بانتباه.

عندما حان الوقت لأخضع لاختبار الكفاءة العسكري عرض علي الرقيب كلينار أن يأخذني إلى المركز، حيث المكان الذي سيعقد فيه الاختبار، وسألني إن كنت أمانع في أن تأتي معنا امرأة أخرى تمر بالإجراءات نفسها، كان اسمها إيمان حمدان، فاعتقد الرقيب كلينار أنه ربما تربطنا علاقة قرابة، لكني أكدت له أنني لم أسمع بهذا الاسم من قبل، لكن أصابني شعور غريب بالقلق من احتمالية معرفتها أحدًا ما يعرف زوجي السابق، لكني قررت على أي حال ألا ألقي اهتمامًا للموضوع.

ارتديت حجابي وأنا خارجة من الشقة؛ حتى لا يراني صاحب البناية. وعندما دخلت السيارة ضحكت إيمان علي قائلة:

«لماذا أنت قلقة منه؟ لا يجب عليك أن تقلقي مما يدور في خاطره، فما تفعلينه لا يخصه».

لم أقل شيئًا، بل التفت ونظرت من نافذة السيارة حتى وصلنا إلى المركز الذي سنخضع فيه لاختبار الكفاءة، وفي أثناء جلوسنا في غرفة الانتظار التفتت إيمان إليّ، وقالت:

«أنا ذاهبة إلى دورة المياه يا فدوى، أيمكنك أن تأتي معي؟».

ثم أخرجت إيمان شنطة مكياج صغيرة من حقيبتها، وقالت لي:

«أنت جميلة جدًّا يا فدوى! لماذا لا تضعين المكياج؟».

«إن كنت جميلة جدًّا، فلماذا عليّ أن أضع المكياج؟ وأنا لا أحبه أصلًا».

«لا تكوني سخيفة، سوف يبدو جميلًا عليك تعالي، دعيني أضع القليل، فسوف يشغلنا ذلك عن التفكير في الاختبار».

وافقت على أن تضع لي القليل من المكياج على وجهي، فوضعت طبقات كثيفة من كريم الأساس وأحمر الوجه والمسكارة وأحمر الشفاه، كنت أبدو غريبة المنظر بالنسبة إلي، وعندما خرجنا من دورة المياه التفت جميع الجنود الجالسين في غرفة التلفاز، ونظروا إلي دَهِشين، فهمست لإيمان، قائلة:

«أترين؟! الجميع ينظر إلي!».

عـدت مسـرعة إلـى دورة المياه، وأزلت كل آثـار المكياج عن وجهـي، وعندما عدت إلى غرفة التلفاز ضحك الرقيب كلينار قائلًا:

«لماذا أزلته؟».

«لا أحب أن أضع الكثير من المكياج على وجهي».

ثم اسـتدعيت إلى غرفة الاختبار، فشعرت بالراحة عندما تحول انتباه الجميع بعيدًا عن هذا الموقف المحرج، اتضـح أن إيمان لم تستطع الخضوع للاختبار في ذلك اليوم؛ لأن عليها أن تقـدم وثيقـة من دائرة الهجرة، لذلـك انتظرت مع الرقيب كلينـار. فوقفت في الطابور مع أشخاص يريدون أن يصبحوا جنودًا، وعليهم أن يخضعوا لاختبار الكفاءة، ثم قام ضباط أمن بتفتيش كل واحد منا؛ ليتأكد أننا لم نحمل هواتف جوالة أو قواميس إلى الغرفة، تركت حقيبتي ومعطفي على رف خارج غرفة الانتظار. ابتسمت الضابطة التي فتشتني، وقالت:

«كم أنت جميلة! هل أنت متزوجة؟».

«نعم، ولدي خمسة أطفال!».

«مستحيل!».

ضـحكت، ثم توجهت إلى الغرفة لأخضـع للاختبار، وهناك جلست مدة ساعتين ونصف السـاعة في مكاني في القسم المخصص للذين يتقدمون للاختبار أول مرة، لم يكن بمقدورنا حتى الذهاب إلى دورة المياه، وعندما انتهيت سـألت رجلًا في مكتب الاسـتقبال: كيف أعرف ما العلامة التي حصـلت عليها، فأخبرني بأنني سأعرف ذلك لاحقًا في اليوم نفسه، لكن علي أولًا أن أخضع لاختبار اللغة الإنجليزية الشفهي.

«استرخي، ولا تشعري بالقلق».

أرشـدني أحدهم إلى غرفة صغيرة، وأعطاني قرصًـا وثلاث أوراق بيضاء؛ لأكتب عليها إجاباتي، ثم يجب عليّ الاستماع لفقرات عدة والإجابة عن أسئلة متعددة الخيارات حولها، ولم يكن باستطاعتي إعادة الاستماع للفقرة إن لم أسمعها جيدًا؛ لذلك كان علي التخمين والانتقال للفقـرة المقبلة. غادر الرجـل الذي رافقني للغرفة، لكنه ظل يراقبني من خلال نافذة زجاجية في الباب؛ ليتأكد أنني لا أغش، استغرق هذا الجزء من الاختبار ٤٠ دقيقة.

وبعد أن انتهيت رجعت إلى غرفة الانتظار، حيث كان الرقيب كلينار وإيمان ينتظراني، علمت أنني قد اجتزت اختبار اللغة الإنجليزية الشفهي، ثم كان علينا أن نذهب إلى الطابق الأرضي في المبنى؛ لنعرف نتيجة الاختبار الأول. كانت يداي ترتعدان، وأنا أنزل الدرج، لكني دهشت عندما عرفت أنني اجتزت ذلك الاختبار أيضًا، فقد خطوت خطوة أخرى نحو الانضمام للجيش.

وفي يوم آخر وجب علي الخضوع لاختبار جسدي، فوقفت في غرفة كبيرة كانت مقسمة بستائر إلى مساحات صغيرة لتغيير الثياب، كنا أربع بنات في الغرفة في الوقت نفسه، وكان علينا جميعًا أن نخلع كل ثيابنا باستثناء الملابس الداخلية؛ لنخضع للاختبار لم أكن مرتاحة للوضع، لكني نزعت ثيابي، ونظرت من وراء الستارة لأرى إن خرج أحد من منطقة تغيير الثياب أم لا. بدت النساء الأمريكيات مرتاحات، كما لو أنهن ينزعن ثيابهن أمام بعضهن كل يوم، فانتظرت وراء الستارة إلى أن نادت علي الطبيبة، ثم خرجت بخجل، وقاست وزني وطولي، وطلبت مني أن أنحني وأمشي في الغرفة؛ لأريهم أنني لا أعاني مشكلات في الظهر أو القدمين. ثم قامت الممرضة بوضع علامات على النماذج الخاصة بالنساء الأربع اللواتي خضعن للفحص في الغرفة، لم أفهم لماذا كان علينا أن ننزع ثيابنا، ولم يفسر أحد لنا الأمر.

«حسنًا، ارتدين ثيابكن، واذهبن إلى الغرفة رقم ٤ لتجرين فحص البول والدم».

ارتدينا جميعًا ملابسنا بسرعة، وذهبنا إلى الغرفة رقم ٤، التي كانت عبارة عن مرحاض نبول فيه في كوب، وعندما حان دوري أغلقت الباب، لكني سرعان ما سمعت صوت الممرضة تنادي: «لا، لا، لا!» ثم دفعت الباب، وفتحته قائلة:

«عليك أن تتركي الباب مفتوحًا؛ حتى أعرف أن العينة جاءت منك».

نظرت إليها لحظة، ثم جلست على التواليت، وغيّرت وضعية جسدي، بحيث أواجه الحائط لأحصل على بعض الخصوصية. ضحكت الممرضة، وقالت لي:

«أهكذا تجلسين على التواليت في منزلك؟».

«ممم، لا».

«هذا اختبار للكشف عن المخدرات يا حبيبتي، عليك أن تلفي جسدك نحوي».

التففت نحوها، ووجهي محمر خجلًا، حاولت أن أتبول بسرعة، ثم رفعت بنطلوني بسرعة البرق، ووجهي لا يزال متوردًا. فأنا لم أستخدم في حياتي المرحاض والباب مفتوح، وفي مجتمعي لا تظهر المرأة جسدها العاري إلا لزوجها أو طبيبتها، لكن هنا كانت هذه الممرضة تحدق في بنظرة تتهمني فيها بأنني أحاول أن أستبدل بعينة بولي عينة شخص آخر، فرؤيتها لأشخاص عراة كان شيئًا روتينيًّا بالنسبة إليها، وليس مؤلمًا. لكني تحملت لحظة عدم الحشمة هذه لأحصل على وظيفة ثابتة ومال كافٍ أدخره لأسترجع أطفالي، وعندما انتهيت غسلت يدي في المغسلة الصغيرة، وغادرت الغرفة بسرعة، غير قادرة على أن أضع عيني في عين الممرضة من كثرة الخجل.

وبعد ذلك كان عليّ أن أعطيهم عينة دم؛ لينهوا الجزء الثاني من اختبار الكشف عن المخدرات. فذهبت إلى غرفة مقسمة إلى أقسام صغيرة فيها نحو ثلاث أو أربع ممرضات، ثم رأيت شابًّا يقف في الطابور أمامي أغمي عليه عندما رأى الدم يخرج من ذراعه، ما أصابني بالتوتر، لكن عندما حان دوري أغمضت عينيّ، بينما غرزت الممرضة إبرة في ذراعي.لم تؤلمني كما كنت أتوقع، فتنفست الصعداء.

وحالما انتهينا من ذلك قامت طبيبة بفحص جسدي، خاصة بطني وثدييّ، وسألتني أسئلة حول حالات الولادة التي مررت بها، وإذا خضعت لعملية قيصرية، شيء من هذا القبيل. وأخيرًا انتهى الاختبار، وكنت جاهزة للمغادرة فورًا، لكن كان عليّ الانتظار حتى ينتهوا من إجراءات قبولي.

وفي أحد الأيام اتصل بي الرقيب كلينار، وعرض عليّ أن يعرفني برجل مصري رجع حالًا من جولة في العراق.

«لكني لن أذهب إلى العراق، أليس كذلك؟».

«لا، لا، سوف تتمركزين هنا في الولايات المتحدة. سوف نضعك في مكتب طبي».

أراحني جوابه، وجهزت نفسي لأرحل من الشقة، فبعت أثاثي وغسالة الملابس، لم أضع أي إعلانات، بل أخبرت الناس شفهيًّا ولم أخبر عمر؛ مالك البناية بعد بأنني سأنضم للجيش، وقبل بضعة أسابيع من موعد رحيلي جاء عمر ليتحدث معي، وأخبرني بأنه يريدني أن أرحل من غرفتي؛ لأن زوجته وأطفاله رأوه ينقل الصناديق التي بقرب باب الطوارئ من خلال الباب الخلفي لشقتي.

«يعتقدون أن هناك شيئًا بيننا يا فدوى. وأنا أخاف من زوجتي عندما تتصرف هكذا، لكن إن غادرت فسوف أرجع لك الـ٦٠٠ دولار التي دفعتها لي وديعة، عندما انتقلت للعيش هنا».

حدقت فيه قليلًا، ثم قلت:

«سوف أفكر في الموضوع».

فكرت في أنه إن قلت له: أنا سوف أترك الشقة قبل أن يسألني فلن يرجع لي وديعة الـ٦٠٠ دولار، فيما بعد أخبرته بأنني سأنتقل من الشقة، وبينما كنت أنتظر وقت مغادرتي أحضر الرقيب كلينارُ الرجلَ الذي كان في العراق والذي يدعى (إسلام). قدمت اعتذاري لهما لعدم وجود أثاث يجلسان عليه، لكنهما أكدا لي أن ذلك ليس مشكلة، ثم تحدثنا برهة عن إجراءات قبولي التي سأخضع لها في أوكلاهوما، عندما يسمح لي بالذهاب إلى هناك. كان الرقيب كلينار والرقيب إسلام يعرفان عن محاولات عمر التقرب مني وعن الجرذان التي في شقتي، فقالا لي:

«هل ترغبين في أن نتحدث معه؟ أما زال يزعجك؟».

كان من المغري أن أجعل جنديين في الجيش الأمريكي يلاحقان مالك البناية التي أعيش فيها، لكني هززت رأسي، وأخبرتهما بأن من الأفضل أن أسترجع وديعتي.

وبعد مدة قصيرة من معرفتي أنني قد اجتزت اختبار الكفاءة العسكري أخبرت الدكتور مجدي بأنني سأرحل إلى تكساس. لم أستطع أن أخبره بحقيقة أنني سأصبح جندية في الجيش الأمريكي، لذلك كذبت، وأخبرته بأن أطفالي قادمون للعيش معي في مدينة هيوستن، وهو لم يسأل عن تفاصيل أكثر، بل تمنى لي التوفيق فحسب.

عندما استغنيت عن أثاثي حزمت بقية أمتعتي، واستأجرت مخزنًا. أتت أندريا وجيمس ليلتقطا بعض الصور لي، وأنا أحزم أمتعتي، ثم غادرا. وعند الساعة ١١:٠٠ صباحًا جاء معلمي السابق، معلم اللغة الإنجليزية جون؛ ليساعدني على نقل أمتعتي، وبينما كان معي أتى عمر وابنه، وطلبا مني التوقيع على نموذج، وأعطاني المبلغ ٦٠٠ دولار. ثم عرض علي عمر أن يساعدني بحمل صناديقي إلى المخزن، فبدأ أحدنا تلو الآخر بحمل الصناديق إلى الأسفل وتحميلها في شاحنته الصغيرة. وفي النهاية استسلمت، وأخبرته بأنني سأنضم للجيش، فقال لي:

«لماذا فعلت ذلك بنفسك؟».

«ولماذا أنت منزعج؟».

«إن ذلك خطير. وأنت لست مضطرة إلى فعل ذلك، فقد أعطيتك خيارًا جيدًا».

حـاول جون أن يغير الموضـوع، فقد كان يتكلم بعض العربيـة، وتمكن إل حد ما من فهم المحادثة بيننا.

جون: «كيف تقول بالعربية اسم تلك البناية هناك يا عمر؟».

لكن لم يستمع عمر إليه، وقال لي:

«أنـت صـغيرة في العمر، وأنا قلق من أن تضـطري إلى الذهاب للحـرب. فأنا أتمنى لك الخير، وما زلت أهتم بأمرك».

«هذا يكفي. لن أجيب عن أي أسـئلة أخرى حول هذا الموضوع، هذا قراري، ولن أتراجع عنه».

ولحسن الحظ وصلنا بسرعة بعد ذلك إلى مكان المخزن، وحملت صناديقي إلى الطابق الثالث، حيث توجد وحدة التخزين التي استأجرتها. ثم ودعت عمر، ولم أرجع لشقتي. وأخذت حقيبة صغيرة وبعض شتلات الزرع لأعطيها لروماندا.

وفي يوم مغادرتي أخذني جون وجيمس لنتناول الغداء، ثم أخذني الرقيب كلينار بسيارته إلى بروكلين. وهناك وقفت في غرفة، وحلفت اليمين مع بعض الأشـخاص الذين سيصـبحون عما قريب جنودًا في الجيش وسـلاح الجو والبحرية. سـألت الرقيب كلينار مرة تلو الأخرى إن كنت سأذهب للعراق، لكنه طمأنني بأنهم سيجدون مكانًا لي في الولايات المتحدة، ثم قال:

«وداعًا يا فدوى. اعتني بنفسك!».

جـاء جـون وروماندا ليودعاني أيضًـا، وأعطتنـي روماندا كتابًـا عن اللهجـات العربية والعراقية.

كانت الرحلة إلى (أوكلاهوما) مبهمة. ففجأة تم فصلي عن صديقاتي، وركبت في حافلة متوجة إلى المطار مع جنود وجنديات يرتدون ثيابًا مدنية. كان هناك خمس نساء وستة رجال

لم يكن أحد يعرف الآخر باستثناء رجلين يجلسان في الخلف، وجلس البقية صامتين، بعضهم يلعب بهاتفه الجوال أو يستمع إلى الموسيقا، ثم توقفنا قليلًا عند محطة وقود، واشترينا رقاقات الشيبسي والماء، وعندما وصلنا إلى المطار أعطونا تذاكرنا، وانتظرنا مع بعضنا لنصعد إلى الطائرة.

وصلنا إلى (أوكلاهوما) عند منتصف الليل تقريبًا، ثم انتظرنا في طابور طويل ليتم إرشادنا إلى غرف نأخذ منها شتى قطع أزيائنا الرسمية الجديدة. حصلنا على زي رسمي واحد فقط في هذه المرحلة، لكنهم سيعطوننا فيما بعد ملابس رسمية أخرى. لم أكن خائفة أو مرعوبة خلال هذه العملية بأكملها. ففكرة أن أصبح جندية كانت شيئًا طبيعيًّا بالنسبة إلي، ربما لأنني انضممت للشرطة الأردنية في الماضي. لم أندم على شيء إلا خلع حجابي الاضطراري، فقد شعرت بالذنب لمخالفة أوامر الله وبالخجل من أن أسمح للرجال أن يروا رأسي مكشوفًا.

ثم طُلب من الجنديات أن يذهبن إلى ثكناتهن، فوقفت في الطابور وراء مدرب عسكري وجندية كانا يتجادلان.

«الليلة ليلتي!».

ودار أيضًا نقاش حاد بين مدرب ومدربة عسكرية.

«لقد حظي بدوره!».

ارتعدت خائفة قليلًا، وتساءلت عن هذه الورطة التي أقحمت نفسي فيها، ربما هذا هو واقع الجيش، وربما يفترض على الجنديات أن يهبن أنفسهن للرجال، وسيحين دوري في إحدى الليالي. لكنني حاولت أن أتخلص من هذه الأفكار، وفيما بعد علمت أنهم يتحدثون عن المناوبة الليلة والسهر في مراقبة الجنود. ثم صعد كثير منا إلى شاحنة صغيرة ستأخذنا إلى ثكناتنا، فجلست بصمت على أمل ألا أفعل شيئًا يجذب الأنظار.

وعندما وصلنا الثكنات أخذتنا امرأة إلى الطابق الثاني، وفتحت باب غرفة كبيرة فيها أسرّة تتكون من طابقين لم يسمح لنا بالاحتفاظ بهاتف جوال أو ساعة منبه، لذلك ذهبت إلى دورة المياه لأسأل أي واحدة هناك كيف سنستيقظ في اليوم المقبل. فوجدت إيمان في دورة المياه تنظف أسنانها.

«فدوى! أنت هنا!».

كانت إيمان قد غادرت قبلي بثلاثة أيام، لذلك كانت تعرف قليلًا كيف تجري الأمور هنا.

« لـن تحتاجي إلى سـاعة منبه، لا تقلقي، فمن المسـتحيل أن تسـتغرقي في النوم. فهم ينادونا بواسطة مكبر الصوت؛ ليوقظنا في الصباح».

وبالفعل، صـدعت مكبرات الصـوت في صـباح اليوم المقبل: «أيها الجنود، اسـتيقظوا!» كانت السـاعة لا تزال ٥:٠٠ صـباحًا توضـأت، وصـليت، وارتدينا ملابسنا بسـرعة، وانتظرنا في الخارج، بينما كان الجنود ينتظمون في تشـكيلات في الخارج؛ ليسـيروا إلى قاعة الطعام، والرجـال المدربون أيضًـا انتظموا في تشـكيلات، ثم سـرنا خلفهم، والفطـور كان عبارة عن السيريال أو الفطائر المحلاة أو الفواكه، ونشرب الماء أو عصير البرتقال، كنت أرغب في أن أحتسي بعض القهوة وآكل شيئًا حلوًا؛ لأستيقظ بعد أن نمت متأخرة، لكن لم يكن لديهم أي من هذا، أو في الواقع ممنوع شرب القهوة أو الصودا في مدة التدريب.

وبعـد الإفطار أُخِذ الجنود الجدد لينهوا إجراءات قبولهم. فجلسـنا جميعًا على الأرض، ثـم ذهبنا إلى متجر الثياب لنحصـل على بذلات رياضـية، تكونت مـن مجموعتين من الثياب القصـيرة للصيف ومجموعتين من الثياب الطويلة للشـتاء. وكان علينا أيضًا أن نشتري أربعة أزواج من الجوارب الخضـر وزوجين من الأحذية، واحد للصـيف وآخر للشـتاء مجهز ببطانة إضـافية. وأُعطيت كل واحدة منا حقيبة كتانية خضـراء؛ لنضـع فيها الملابس. كان وزن هذه الحقيبة ١٨ كيلوجرامًا، حملتها على ظهري، فكنت أتمايل لأقف وقفة مسـتقيمة، وأسـير تحت أشـعة الشـمس من ثقل وزنها. وبعد ذلك أعطـوا كل واحدة منا بطاقة مشـحونة ببعض المال لنشـتري أحذية رياضـية وملابس داخلية بيضـاء وصداري رياضـية وجوارب بيضاء وفراشي أسنان، ووضعنا كل هذه الأشياء في الحقيبة الخضراء أيضًا.

وبعد أن انتهينا من التبضـع عدنا إلى الثكنات. كانت النسـاء يجلسـن في الداخل بقرب الحقائب، أما الرجال فانتظروا في الخارج، وبعد قليل سرنا إلى غرفة الطعام لنتناول الغداء. أتى أحد المدربين العسكريين ليتحدث معي كان رجلًا لطيفًا. وضعت بطاطس مهروسة وسلطة وفواكه وبعض المكسرات في صحني، فسألني قائلًا:

«هل أنت نباتية؟».

«لا، لكني لا أحب اللحم كثيرًا».

وبعد أن أنهينا طعامنا حملنا حقائبنا راجعين إلى ثكنات النوم.

وفي اليوم الثالث في قاعدة أوكلاهوما العسكرية كان علينا تجديد لقاحاتنا (التطعيم) كنا في شهر حزيران، لكني شعرت بالخجل الشديد من ارتداء الزي الرياضي القصير (شورت)، لذلك ارتديت زي الشتاء، فأوقفني أحد المدربين العسكريين في طريقي إلى القسم الطبي، وسألني:

«لماذا ترتدين أكمامًا طويلة؟».

«أشعر براحة أكبر هكذا، وقد أخبروني قبل أن أغادر أن بإمكاني ارتداء أكمام طويلة».

«حسنًا، أردت معرفة السبب فقط».

وعندما وصلت إلى القسم الطبي اكتشفت أن عليّ تلقي لقاحات عدة كنت قد أخذتها مسبقًا وأنا طفلة؛ لأنه لم يكن معي أي سجلات تطعيم، ثم كان عليّ أن أخضع لفحوص دم وبول؛ ليتأكدوا أنني لست حاملًا، استغربت عندما سحبت الممرضة دمي، ولم تضع طابعًا على أنبوب العينة، لكني هززت كتفيّ استهجانًا، ولم أفكر في الأمر بعد ذلك. لكن في اليوم المقبل أخبروني بأن أنبوبي ضاع، وكان علي أن أعطيهم عينة دم أخرى.

ولاحقًا في غرفة الطعام جلس أحد المدربين العسكريين بجانبي، وقال لي:

«أريد أن أطرح عليك سؤالًا مهمًّا يا حمدان. لدي بعض الرجال الشرقيين في مجموعتي، وأنا أحاول أن أتعلم القليل من لغتهم؛ حتى أتمكن من التواصل معهم. لذلك أريدك أن تخبريني كيف أقول كلمة: (fuck) بالعربية».

هززت رأسي، وأجبته:

«أنا لا أعلّم الكلمات البذيئة في اللغة العربية، وخاصة هذه الكلمة».

«هيا! أخبريني».

«لا».

التفتت إيمان (التي لم تكن تتكلم الإنجليزية جيدًا بعد) نحوي، وقالت:

obeikandl.com

«ما هذا السؤال؟ لماذا يريد أن يعرف كيف يقول ذلك بالعربية».

«هذا ليس بالأمر المهم يا إيمان. لا تولي ذلك اهتمامًا».

ثم كان علينا جميعًا أن نجلس على المدرج لنستمع إلى محاضرة، وبعد المحاضرة نادى عليّ أحد المدربين العسكريين له وشم على شكل سمكة يغطي رجله بأكملها، وطلب مني أن أترجم ما يقوله أحد الرجال المغربيين، اللغة المغربية هي خليط من العربية والبربرية والفرنسية، لكني كنت أفهم ما يقوله ذلك الجندي، وبينما كنت أستمع، وأترجم أتت إيمان للمكان الذي نقف فيه.

ثم نادت على المدرب، قائلة: «لديك وشم جميل أيها المدرب!».

«لدي واحد آخر على ظهري. أتحبين أن تريه؟».

نزع قميصه ليرينا وشمًا للسيدة العذراء موشومًا على الجزء العلوي من ظهره.

وبعد بضعة أيام أنهينا جميعًا إجراءات قبولنا، وأصبحنا جنودًا وجنديات جديدات في الجيش الأمريكي. كنا من جنسيات مختلفة ومن جميع أنحاء العالم، من دول عدة في الشرق الأوسط وإفريقيا وأيضًا من بورتوريكو. كان برنامج (٠٩ ليما) مخصصًا للجنود والجنديات اللواتي يتحدثن العربية والفارسية، لكن حتى الجنود الذين لا ينتمون لبرنامج (٠٩ ليما) كان عليهم أن يدرسوا لغات تخص الجيش. كنت أنا جزءًا من برنامج (٠٩ ليما)، وهو برنامج أنشأه الجيش ليجتذب أشخاصًا أكثر من الشرق الأوسط ليترجموا لغات، مثل العربية والفارسية، وليفسروا العادات والتقاليد الاجتماعية. لكن قبل أن نبدأ رسميًّا تدريبنا الأساسي كان علينا أن نذهب إلى مدرسة لغات تابعة للجيش في سان أنطونيو- تكساس؛ لتساعدنا على اجتياز اختبار اللغة الإنجليزية (ECL). سمعت شرحًا عن هذا كله، لم يقلقني هذا الموضوع في ذلك الحين. فقد كان علي أن أخضع لاختبار تدريبي، وكنت على وشك اجتيازه. وبعد بضعة أشهر من الدراسة المكثفة كنت متأكدة أنني سأجتاز هذا الاختبار.

أعطتنا مدربة عسكرية إرشادات قبل أن نغادر (فورت سام)، لكن قبل أن تذهب سكتت لحظة، وسألتنا: كم لغة نتكلم؟

«أنا فخورة بكم يا بنات ويا شباب، أنتم أفضل مني، فأنا أتكلم لغة واحدة فقط».

obeikandi.com

ثم أخبرتنا عن الخطوة المقبلة.

«سوف تركبون حافلة إلى المطار، وتسافرون إلى (سان أنطونيو). ثم تذهبون إلى قاعدة (لاكلاند) لسلاح الجو في سان أنطونيو. وفي أثناء سفركم لا تنسوا أن تلبسوا الزي الرسمي وتتصرفوا بوصفكم جنودًا في الجيش الأمريكي، فلا تشربوا الكحول، ولا تدخنوا، ولا تمارسوا الجنس».

ولكن يسمح لكم بأن تنزعوا القبعة داخل المطار ورقعة أسمائكم القماشية المثبتة على صدوركم، وحثت بالأخص الجنديات والجنود من الشرق الأوسط على أن ينزعوا رقعات أسمائهم؛ حتى لا يسهل على الناس في المطار معرفة أصولهن.

وعندما وصلنا إلى المطار كان علينا خلع أحذيتنا ليتم تفتيشنا، وبينما مررنا في جهاز كشف المعادن شكر موظفو المطار كل واحدة منا، قائلين:

«نحن فخورون بكم لخدمتكم لهذا البلد».

وشكرناهم نحن جميعًا أيضًا، وأكملنا طريقنا.

وفي الطائرة جلسنا بالقرب من بعضنا، لكن بدأت امرأة مدنية بالحديث مع جندي يدعى (ريفيرا) بورتيركو الجنسية، فسألته عن أسمائنا وعن رتبنا العسكرية وماهية عملنا؟ فأخبرها ريفيرا بكل شيء يعرفه، على الرغم من أنهم أخبرونا بألا نتحدث مع أحد. هز جندي رأسه غاضبًا، وكان يجلس بقربي يدعى (جانج) إفريقي طويل القامة. فقررت أن أنزع اسمي عن زيي الرسمي؛ لأن المدنيين في الطائرة أصبحوا يعرفون طبيعة وظيفتنا، وجب عليّ أن أكون حذرة، فقد كنت خائفة أن يرى الأمريكيون أو حتى العرب في الطائرة اسمي، ويعرفون أنني امرأة شرقية تعمل في الجيش الأمريكي. فمن المحتمل أن يظنوا أنني جاسوسة، ويكرهوني.

وخلال التوقف المؤقت للطائرة جلسنا في قاعة الانتظار، حتى موعد الطائرة الثانية، جلست وحدي، واستمعت إلى الموسيقا. ذهب بعض الجنود إلى الحانة ليشربوا، وخرج آخرون ليدخنوا السجائر. نظر إليّ جانج (الشاب الجنوب إفريقي) وهز رأسه قائلًا:

«حمدان، حمدان. هل تصدقين كل هذا الهراء؟ أترين ما يفعلونه؟ إنهم لا يحترمون الزي الرسمي».

كنت عازمة على اتباع التعليمات بغض النظر عما يفعله الآخرون. فقد كنت هنا لسبب واحد فقط، وهو أن أحصل على عمل وحياة أفضل، ولم تكن لدي نية في تدمير هذا بسبب شعور مؤقت بالضجر، فجلست بالقرب من جانج (وشاب إفريقي آخر) وشاب من العراق يدعى (شريف). استمر آخرون بالخروج من قاعة الانتظار ليتناولوا بعض المشروبات، أو ليدخنوا. وكان ريفيرا لا يزال يتحدث مع النساء، ويخبرهن عن مجموعتنا.

وفي تلك اللحظة شعرت بالغضب منهم جميعًا بسبب تصرفهم الصبياني، فلن أسمح لهم بأن يورطوني في مشكلة؛ لأنهم لا يحسنون التصرف، وإذا احتاجوا إلى أم تعلمهم النظام، إذن أنا لها. فناديت على الجميع بنبرة صارمة، وأخبرتهم بأن يبقوا مع بعضهم، فضحك ريفيرا قائلًا:

«لا!».

صرخت فيه قائلة:

«لا! ارجع هنا!».

بدا منزعجًا، وقال:

«من جعلك رئيسة علينا؟».

كذبت، وقلت: «القائد...، قبل أن نغادر أوكلاهوما. لم أرد أن أقول شيئًا؛ لأني اعتقدت أنكم بالغون عاقلون، وليس من الداعي معاملتكم كأطفال، لكني كنت مخطئة».

حاول جانج أن يسكتني قائلًا: «اهدئي يا حمدان».

لكني تجاهلته، وقلت:

«لا يتحرك أحد، ولا يفعل أحد أي شيء دون إذني، فليجلس الجميع هنا».

جعلتهم جميعًا يكتبون أسماءهم في دفتر ملاحظاتي الصغيرة الذي كان معي. ثم قال لي أحدهم وهو خائف قليلًا:

«لن تخبري القائد عما فعلنا، أليس كذلك؟».

«إن اتبعتم التعليمات. حسنًا، الآن علينا أن نجلب أمتعتنا اتبعوني».

obeikandl.com

شـعرت كأني أم ترشـد أطفالها وتحميهم، عندما رأيت جميع الجنود والجنديات الستة عشر يسيرون في خط مستقيم أمامي، وعندما أصبحوا منتظمين تلاشى انزعاجي منهم. فقد تظاهرت بأنهم أطفالي، وشـعرت بالفخر الشـديد عندما انتظموا في الصف، فمشيت خلفهم أنحنـي من حين لآخـر؛ لأتأكد أن الجميع موجودون، لم تكن لدي فكرة عن وجهتنا، لكني كنت متأكدة أنني سأجد علامات تدلنا على الطريق، ثم استأذن مني أحد الجنود بصوت منخفض لأن يذهب لاستخدام الحمام، فأجبته:

«حسنًا، يمكنك الذهاب للحمام، لكن بسرعة».

وبعد أن وصلت بنا الطائرة إلى (سان أنطوتيا).

نزلنـا علـى الدرج المتحـرك لنأخذ حقائبنا، ثـم بحثت حولي عن عربة لأضـع حقيبتي الثقيلة فيها، فرأيت رجلًا في زي جيش رسمي يرتدي قبعة كبيرة، فقلت:

«هذا هو المدرب العسكري أيها الجنود».

«كيف عرفت أنه هو؟».

أي شخص يمكنه أن يعرف أنه المدرب العسكري من زيه الرسمي وقبعته، لكني جعلتهم يعتقدون أنني أعرفه مسبقًا؛ لأني أنا المسؤولة عنهم.

وفي النهاية لم أتمكن من استخدام العربة. فكان علينا جميعًا أن نحمل حقائبنا، ونمشي نحـو الحافلة التـي كانت متوقفة بعيـدًا عن مدخل المطـار، ثم نادى المدرب العسـكري على أسمائنا، وركبنا الحافلة، التي امتلأت جميع كراسيها بنا، ولم نستطع أن نسأل عن وجهتنا؟

عندما وصـلنا إلى لاكلاند دخلنا إلى الثكنـات، وأفرغنا محتويات حقائبنا على الأرض. ثـم وجب علينا أن نضـع قميصًـا واحدًا في حقيبتنـا وآخر على الأرض، وزي رسـمي وملابس داخليـة في الحقيبة وزوج من الجوارب البيضـاء وزي رياضـي على الأرض، ووضـعنا هواتفنا الجوالة وكاميراتنا ومشـغلات الأقراص المدمجة في أكياس بلاسـتيكية منفصلة، وأغلقناها بإحـكام، فلن نرى هذه الأغراضـ إلا بعد مدة بعد الانتهاء من التدريب العسـكري، ثم أخذوا خيوط تنظيف الأسـنان والشـفرات منا؛ حتى لا نحاول الانتحار في أثنـاء وجودنا هناك، لكن سـمح لنا بأن نحتفظ بفرشاة ومعجون أسنان، وأعطونا مناشف بنية عسكرية، وأعطونا أيضًا

بوابيج سوداء لنرتديها في أثناء الاستحمام وقِرَب ماء ومصابيح يدوية عسكرية.

ثم أغلقنا حقائبنا، وحملناها صاعدين السلالم. كان من المفترض فينا أن نجد بابًا على الجهة اليمنى يؤدي إلى قاعة رياضية، لكني تعديته.

فصرخ في أحد المدربين العسكريين قائلًا: «إلى أين أنت ذاهبة؟ ارجعي إلى هنا!!! إنه الباب الأول!».

ثم نادى المدرب العسكري على إحدى الحارسات لترشدني أنا والجنديات الأخريات إلى ثكنات النوم الخاصة بنا.

ثم وجب علينا ارتداء أزيائنا الرياضية، فرجعت للمدرب العسكري، وقلت له:

«لا يمكنني ارتداء السراويل القصيرة أيها المدرب».

«ولماذا لا يمكنك ارتداؤها؟».

«لأنني لم أرتدِ سراويل قصيرة في حياتي كلها، فأنا مسلمة».

«الجميع سواسية هنا، وعليك أن ترتدي الزي نفسه».

أرشدتني إحدى النساء الأخريات إلى دورة المياه؛ حتى أغير ملابسي. فارتديت السروال القصير، وجلست على التواليت أبكي، فقد كنت خجلة من أن ينظر الجميع إلى رجليّ وذراعيّ العاريتين.

تم تقسيمنا إلى ثلاث مجموعات: حمراء، وزرقاء، وبيضاء. كنت أنا في المجموعة الحمراء؛ لأني جندية جديدة، أما الجنود الذين أمضوا شهرًا هناك فانتقلوا للمجموعة البيضاء، وبعد ثلاثة أشهر انتقلوا إلى المجموعة الزرقاء شهرين إضافيين. تمتعت المجموعات الأعلى مستوى بامتيازات أكثر في الثكنات، مثل إمكانية مشاهدة التلفاز واستخدام الهواتف النقالة في المساء. لكنهم كانوا أيضًا أقرب للتسريح؛ لأنهم لا يزالون في برنامج (٠٩ ليما) لعدم اجتيازهم اختبار اللغة الإنجليزية بعد، وكذلك الحال مع جنود آخرين لا ينتمون إلى برنامج (٠٩ ليما). لم يسمح للجنود والجنديات في المجموعة الحمراء بأن يستخدموا الهواتف المتنقلة، حتى في أثناء وقت استراحتهم الشخصية من الساعة ٨:٠٠ مساءً إلى ٩:٠٠ مساءً، أي إنني لن أتمكن من التحدث مع أطفالي شهرًا كاملًا. كنت أعرف أن الأمر سيكون على هذا النحو، لكني كان من الصعب علي ألا أسمع صوت أطفالي مدة طويلة.

obeikandi.com

صرفت انتباهي عن التفكير في الأمر من خلال التركيز على تعلم التدريبات العسكرية. فقد كان علينا كل صباح الاستيقاظ عند الساعة ٥:٠٠ صباحًا لأداء التدريب البدني، تعلمت بسهولة معظم الأشياء التي كان علينا فعلها؛ لأني أحب التمارين الرياضية، فقد كان علينا خلال ساعة واحدة فقط تنفيذ تمارين الضغط وتمارين المعدة والركض مسافة ميل. وبعد ذلك كنا نتوجه للثكنات لنستحم، ونرتدي أزياءنا الرسمية، ونصطف أمام خزائننا لنخضع للتفتيش. فقد كانوا يتحققون من أن رتبنا العسكرية موضوعة باستقامة على أزيائنا، وأننا نرتدي جوارب ذات ألوان صحيحة، وأن خزائننا لا تحتوي على أي مواد محظورة، وبعد اجتياز التفتيش كنا نسير في تشكيلات إلى قاعة الطعام. وعندما أنهينا تناول طعام الإفطار توجهنا إلى معهد التدريس لنحضر لاختبار اللغة الإنجليزية، فإلى جانب تعلم الانضباط التام واتباع جميع التعليمات، كان هدفنا الرئيس في لاكلاند أن ندرس لنجتاز اختبار اللغة الإنجليزية. كنت قد خضعت لهذا الاختبار في نيويورك، وحصلت على علامة ٦٥. وعندما أتيت إلى لاكلاند خضعت لهذا الاختبار مرة أخرى وحصلت على علامة ٧٠، أي ٥ علامات فقط فوق علامة النجاح.

أعطوني كتابًا ذا لون أزرق باهت، على غلافه شعار معهد اللغات التابع لوزارة الدفاع والرقم ١٩. وكنا كل أسبوع ندرس في كتبنا، ونخضع لامتحانات قصيرة في نهاية الأسبوع. وفي يوم الجمعة كان المدرب العسكري المغربي الأصل (رواسي) يخبر الجنود المسلمين بأن يتبعوه للمسجد إن أرادوا الصلاة، فكنا نسير خلفه، ونصلي، ثم نعود إلى الثكنات.

وفي أول عطلة أسبوعية وصل جندي جديد إلى لاكلاند، لذلك حظينا بفرصة نادرة للذهاب إلى المتجر العسكري، حيث يمكننا شراء شامبو وصابون وجوارب جديدة. كان المتجر العسكري يبيع كل شيء، لكن كان معظم هذه الأشياء محظورًا في الجيش، لذلك لم نستطع شراءها، كان كل شيء تقريبًا محظورًا، ابتداء من الحلويات والعلكة وانتهاء بالسجائر، ولم نستطع في الثكنات فعل أي شيء إلى التحضير لاختبار اللغة الإنجليزية. كانت غرفة التلفاز مغلقة، ولم يسمح لنا بالنوم قبل أن يحين موعد النوم.

وفي إحدى الأمسيات خلال وقتي الشخصي طلبت من إحدى الجنديات أن أستخدم هاتفها الجوال، فقد كانت في المجموعة البيضاء، ويمكنها استخدام الهاتف. نظرت إلي مستغربة، لكنها أخبرتني بألا أدع أحد يراني، رغبت بشدة في أن أتصل بأطفالي، لكن لم

أقـدر على إجراء مكالمـة خارجية. فاختبأت وراء الخزانة، واتصـلت برومانـدا لأطلعها على أحوالي. ثم اتصـلت بأندريا، المراسلة الصـحفية في جريدة نيويورك تايمز، التي طلبت مني أن أتصـل بها بشـكل متكرر؛ لأعلمها بأحوالي، فأخبرتها بسرعة ببعض التفاصيل عن تدريبي وأحوال دراسـتي، إن الاتصـال بشـخص خارج القاعدة، وأنا ما زلت فـي المجموعة الحمراء شيء مخالف للتعليمات، لكن لم أقدر على تضييع فرصة إخبار أطفالي بقصتي.

قبل السـاعة ٩:٠٠ مسـاء بخمس دقائق جاء مدرب عسـكري يدعى (روب) إلى ثكنتنا، وأحصى الجميع، ثم أُطفئت الأنوار، وذهبنا جميعًا لننام في أسِرَّتنا ذات الطابقين، التي كانت مصفوفة على جانبي الغرفة. كانت امرأتان تعملان في وردية حراسية كل ساعتين. وكان دوري من السـاعة ١١:٠٠ مسـاء إلى منتصـف الليل. فوجب عليّ أن أجلس على كرسي بقرب نافورة الشـرب القريبة من باب الممر، وأكون على اسـتعداد لأنادي على المدرب العسكري إن حصل أي شئ ضروري، وعند نهاية الوردية كنا نوقظ الحارستين المقبلتين.

وفي عطلة نهاية الأسـبوع كان يسـمح لنا بأن ننام حتى السـاعة ٦:٠٠ صـباحًا، ولم يكن علينـا أداء التدريـب البدني، لكن كان علينا أن ندرس، وأن ننظف الثكنات، ونسـتعد للتفتيش. سـمح لفرقة المجموعتين الزرقاء والبيضـاء بأن يخرجوا من الثكنات بعد الظهر ليذهبوا إلى المتجر العسكري، لكن وجب على المجموعة الحمراء أن تبقى في الداخل.

بعد الأسـبوع الأول كان عليّ أن أخضع لاختبار اللغة الإنجليزية للمرة الثالثة. فقد اعتقد المدربون العسكريون أنني سأتمكن من اجتياز الاختبار على الرغم من مرور مدة قصيرة؛ لأن علاماتي قد ارتفعت خمس نقاط. وبعد أن خضـعت للاختبار كان علي أن أنتظر سـاعة كاملة ليخبروني بأنني حصلت على علامة ٦٦ لم أصدق ما حصل انخفضت علامتي، وشعرت بخيبة أمل، لكني قررت أن أضـاعف جهودي لأحضـر للاختبار، فأصـبحت أركز على دراستي، بينما كان الجنود الآخرون يحاولون التوصـل لطرق يتحايلون بها على التعليمات، أو يحسدون جنودًا آخرين؛ لأنهم يسـتطيعون أن يذهبوا إلى آلات البيع، ويدخنون في الخارج دون أن يتورطوا في مشـكلات. لم أكتـرث باللهو والمرح، فقد كنت هناك لأعمل بجد حتى أحصـل على عمل جيد لاحقًـا. تم وضـع جميع الجنود الدوليين مع بعضـهم، وكنت أحاول جهدي أن أشـجع النسـاء الأخريات في ثكناتي على التركيز على واجباتنا هناك.

وكنا كل أيام الجمعة نخضع لاختبارات قصيرة للمواد التي راجعناها خلال الأسبوع. كنت دائمًا أحصل على علامات جيدة في هذه الاختبارات، ما جعلني متفائلة بأن أجتاز الاختبار العسكري في اللغة الإنجليزية. لكن بعد أن أخذنا بعض الاختبارات القصيرة بدأت ألاحظ أنها لا تشبه اختبار اللغة الإنجليزية الخاص بالعسكرية. فقد كانت اختبارات الكتب تدور حول القواعد والمفردات، لكن اختبار اللغة الإنجليزية فيه أسئلة محتوى تدور حول موضوعات، مثل أجزاء الطائرات، فحتى لو كانت مهاراتك في اللغة الإنجليزية جيدة لن تتمكن من الإجابة بشكل صحيح عن الأسئلة إن لم تعرف المحتوى.

كنت أعطس كثيرًا كل صباح خلال التدريب البدني، وأصبحت عيناي حمراوان، وتحكاني كثيرًا بسبب الحساسية. فسألني المدرب العسكري المناوب إن كان لدي تقرير طبي حول الحساسيات التي أعانيها، ففي الجيش لا شيء حقيقي دون تقرير رسمي؛ لذلك كان علي الذهاب للطبيب لعدم امتلاكي تقريرًا، ولأفعل ذلك ذهبت إلى (مكتب المرضى) لأسجل اسمي بوصفي مريضة. كان يجب أن تكون لي رفيقة لأستطيع الذهاب إلى أي مكان، لذلك طلبت من إيمان أن تكون رفيقتي العسكرية.

لم تكن إيمان تحب التدريب البدني، فوافقت بلهفة على الذهاب معي، وعندما دخلنا إلى مكتب الطبيب اضطررنا إلى أن نتصرف بهدوء وجدية تامة لنظهر أنني مريضة فعلًا، ولا أحاول فقط أن أتجنب التدريب البدني.

فحصني الطبيب بسرعة، وأعطاني بعض قطرات العين وأقراصًا بيضاء، وكتب أيضًا ملاحظة بعدم ممارسة التدريب البدني والابتعاد عن العشب بضعة أيام؛ حتى يأخذ الدواء مفعوله، لكن باستثناء ذلك كانت معظم أيام الأسابيع القليلة الأولى روتينية جدًّا.

وفي إحدى الأمسيات قبل الساعة ٨:٠٠ مساءً بقليل ذهبت إلى مرحاض الثكنات، كانت هناك غرفة صغيرة مفتوحة فيها مقعدان تقع بالقرب من المرحاض، فدخلت إلى هذه الغرفة المفتوحة، ووجدت إحدى الجنديات تقف حارسة، بينما كانت امرأتان تمارسان الجنس، فأفزعني ذلك، وقررت أنه ليس من الضروري جدًّا أن أذهب إلى المرحاض.

خرجت بسرعة من الغرفة، وأمسكت ذراع إيمان، لكنها أبعدتني عنها، وقالت: إنها لا ترغب في رؤية المدرب العسكري الآن، لكن وافقت امرأة عراقية تدعى (سيري) على الذهاب معي، فمشت بقربي دون أن تسأل عما يجري؟

كان المدرب العسكري (دايفس) هو المدرب المناوب في ذلك المساء، فأخبرته بأنني أريد أن أغادر الجيش، فقال لي:

«ماذا؟ ولماذا؟ لم تمضِ إلا مدة قصيرة على وجودك هنا، لا يمكن أن يكون الأمر بهذا السوء».

«لا أريد التحدث في الموضوع. أريد أن أغادر فحسب».

«لا بد أن هناك سببًا، فما هو؟ تكلمي».

«أريد فقط أن أغادر».

سألتني سيري بالعربية عما يجري، فأجبتها:

«لا شيء. أنا فقط لا أريد أن أبقى هنا».

سألني دايفس إن كنت أرغب في رؤية المستشار.

«ماذا يعني ذلك؟».

«إنه مستشار، ويمكنك التحدث معه عن أي مشكلة تعانينها، وهو يتكلم لغتك اسمه الكابتن الحبشي».

قررت أن أجرب ذلك، فسجلت اسمي عند مكتب المدرب لأرى المستشار في اليوم المقبل.

وفي اليوم المقبل كنت في الحصة الدراسية، عندما أتى أحد المدربين العسكريين ليخبرني بأن أذهب إلى المسجد بصحبة رفيقة عسكرية. كانت إيمان على الأرجح ستخبر الجميع بأي شيء تسمعه، لذلك قررت أن أطلب من امرأة عراقية نصرانية اسمها (سميرة) أن تذهب معي، وعندما وصلنا إلى المسجد كان علينا أن ننتظر في الخارج بضع لحظات، ثم رأينا رجلًا يتجه نحونا، وهو يحمل طفلين صغيرين.

«السلام عليكم. أنا آسف؛ لأن الطفلين معي، فزوجتي في المستشفى، وعليّ أن أعتني بهما اليوم، إن لم تمانعا فسنلتقي في الطابق الثاني من المسجد».

جلست سميرة بعيدة عنا، وقرأت كتابًا أحضرته معها؛ حتى تعطينا بعض الخصوصية، جلس الكابتن الحبشي معي على إحدى الأرائك المنفصلة عن مكان المصلى في الغرفة، بدأ طفلاه بالركض هنا وهناك، فطلب منهما أن يهدأا، فجاءت ابنته، وجلست على ركبته، ثم قال لي:

obeikandl.com

«يسـرني أن ألتقيك يا سـيدة حمدان. أنا أعرف شخصًـا من عائلة حمدان هنا في سان أنطونيو ألديك عائلة هنا؟».

دهشت بسماع هذا. ثم أكمل قائلًا:

«إنه طبيب أطفالي. اسمه زكريا حمدان، ولديه أخ في السعودية».

« لا أستطيع أن أتذكر اسم أخيه؟».

«لم أتذكر ما قاله لي ربما (محمد) اسم ابنه البكر يوسف، وقد تخرج ابنه هذا حديثًا في المدرسة الثانوية، وحصل على علامات جيدة، وسمعت أيضًا أنه سيذهب للجامعة عما قريب».

«وماذا عن أمه؟».

«أوه، هـذا محزن جدًّا. فقد أخبرني زكريا بأن (أم يوسـف) وأباه لم يعودا يعيشـان مع بعضهما».

فقلت في نفسي «يا لهذا العالم الصغير!» هل هو يقصد عائلتي؟

تخرج ابني يوسـف في المدرسـة الثانوية، وحصـل على علامات جيدة، وسـيذهب إلى الجامعة! ضغطت على نفسي؛ حتى لا أبكي. فقد قدمت كل هذه التضحيات من أجل ذلك، ولم تذهب هذه التضـحيات سدى، لكن كان سماع هذا الخبر من شخص غريب شيئًا رائعًا ومؤلمًا في الوقت نفسه، كأنني حلمت بحدوثه، لكن لم أختبره بنفسي. ثم نظرت إلى الكابتن، وقلت:

«أنا أم يوسـف يا كابتن الحبشي. لقد تخرج ابني في المدرسة الثانوية، ولم أعلم بالأمر حتى».

ثم أخبرته بأوصاف زكريا، فاتسعت عيناه دَهشًا.

لم يعرف ما يقول لي إلا: «يا له من عالم صغير!».

«أرجـوك إن رأيـت زكريا فلا تقل له شـيئًا عني، فهم لا يعرفون أنني انضـممت للجيش الأمريكي، وأنني نزعت حجابي».

«كل ما تقولينه هنا سـيبقى سـرًّا ولا حتى زوجتي سـتعرف شـيئًا مما قلته لي هنا، والآن أخبريني، ما مشكلتك؟».

أخبرتـه عن تجربتي التي مررت بها، عندما دخلت إلـى تلك الحمامات، ورأيت امرأتين تمارسـان الجنس. في الحقيقة شـعرت بالصـدمة وبعض الخوف من أن يكون هذا جزءًا من العمـل فـي الجيش، فلم أعرف إن كانت هؤلاء النسـاء يمارسـن الجنس بالتراضـي، أم كانت النسـاء الأقـل رتبة يُجبرن علـى تقديم الخدمات للأخريـات. لذلك خفـت أن تجعلني إحدى النسـاء أفعل أشـياء معها، كانت هذه الكلمـات تبدو غريبة قليلًا، وهي تخـرج من فمي، لكني شعرت بالراحة فورًا بعد أن أخبرت الكابتن الحبشي عن مخاوفي.

استمع إلي الكابتن، وابتسم ابتسامة تعاطف قائلًا:

«سـوف ترين الكثير من الأشـياء في أثنـاء وجودك هنا، لكن لا داعـي لأن تخافي. فإذا لمسك أحد، وسبّب لك مضايقة يمكنك عندئذ إخبار مدربك العسكري».

«وعلينا أيضًـا أن نرتدي السـراويل القصـيرة والقمصان قصـيرة الأكمام، لقد خلعت حجابي من قبل، والآن ذراعاي ورجلاي مكشوفتان، هذا يشعرني بالحرج الشديد».

«لا داعي لأن تشـعري بالحرج، في الماضـي لم يكن هناك ولا حتى ستائر حول حجيرات الاستحمام، لكن تغير ذلك الآن؛ لذلك ستحصلين على بعض الخصوصية».

كتب تقريرًا دون أن يذكر أسـماء، فلم أرد أن أورط أي أحد في مشـكلات، ثم ذهبت أنا وسميرة إلى قاعة الطعام، حيث التقينا المدرب العسكري دايفس، فقال لي:

«أتشعرين بتحسن الآن يا حمدان؟».

ابتسمت له، وأجبته: «نعم، شكرًا لك».

وفـي اليوم المقبل وقفنا صـفًّا ننتظر المسـير راجعين إلى الثكنـات عندما أتى المدرب العسكري (دينسون). كان هذا المدرب صارمًا جدًّا، وكان معظم الجنود والجنديات يخافونه، فوقف أمامنا، وبدأ يصرخ قائلًا:

«إن سـمعت أن أحدكم يلمس أي شخص، فسيقع في ورطة كبيرة! وسوف يخضع للفصل ١٥!».

لم يكن أحد يعرف ما هو الفصل ١٥.

«لا تنظروا إلى بعضكم! أنا أعرف ما كنتم تفعلونه!».

تململت جميع النساء بقلق، فحاولت ألا أضع عيني في عين أي شخص؛ حتى لا يكتشف أحد أنني السبب وراء الصراخ عليهم بسبب شكوتي للمستشار، وبعد ذلك حاولنا أن نكتشف ما الفصل ١٥. استلزم الأمر شهرًا كاملًا لنستجمع شجاعتنا، ونسأل أحد المدربين العسكريين عن معناه؟ فاكتشفنا أنه إذا خضع أحد للفصل ١٥ فهذا يعني أن رتبته ستنزل، وسيحصل على راتب أقل، وسينفذ مهامّ أكثر في التنظيف في المطبخ.

بعد هذه الحادثة قررت أن أحاول جهدي أن أبتعد عن النساء المثيرات للمشكلات، وفي إحدى الليالي كان علي أنا وإيمان تولي مهمة الحراسة في الوقت نفسه، كان المدربون يضعون القائمة بحسب الأحرف الأبجدية متبعين ذلك باسم العائلة، كانت الثكنة هادئة بشكل عام باستثناء وقع أقدام شخص ما يصعد الدرج من حين لآخر، فمشت إيمان بهدوء نحوي، ونقرت ذراعي قائلة:

«أسمعت ذلك يا فدوى؟».

«نعم، سمعته».

لم أقل كلمة أخرى على أمل أن تنسى الأمر، لكن في صباح اليوم المقبل طلبت مني أن أكون مرافقتها العسكرية حتى تذهب، وتتحدث مع المدرب العسكري المناوب، فقلت لها:

«لا أريد أن أكون رفيقتك العسكرية، فأنت دائمًا تشتكين عند كل صغيرة وكبيرة».

«لا، يا فدوى، عليك أن تأتي معي».

وهكذا ذهبت معها إلى المدرب العسكري، فقال: إنه سيتحرى عن حادثة الدرج هذه.

ثم نزلنا الدرج، وقابلنا (عطى)، وهي جندية جديدة من مصر عمرها ١٨ عامًا. كانت تتجادل مع أحد المدربين العسكريين حول ملابسها، فقد كانت ترتدي الزي الرياضي الشتوي؛ حتى تغطي ذراعيها ورجليها، لكن أخبرها المدرب العسكري بأن ترتدي الزي الرياضي الصيفي.

فأجابته بنبرة تحدٍّ: «لا، لا أريد أن أفعل ذلك».

كان الجميع صامتين، بينما استمر الاثنان في الصراخ، لكن انتصرت (عطى) في النهاية، ولم تضطر إلى تغيير زيّها.

openkanal.com

وفي الصباح الباكر من اليوم المقبل نادى المدرب (دينسون) في مكبر الصوت قائلًا: «حمدان، احضري إلى المكتب».

لم أعرف إن كان يعنيني أنا أم إيمان، وكانت إيمان في المرحاض، لذلك طلبت من إحداهن أن تكون مرافقتي العسكرية، وذهبنا إلى المكتب؛ لنرى على أي منا كان المدرب ينادي.

«لقد سمعت يا حمدان، أنك قدمت شكوى حول ضجة على الدرج في إحدى الليالي، أنت دائمًا تشتكين ألا تعرفين ما يجري؟ قدموا لدينا جنودًا جددًا».

«لكني لست من اشتكى أيها المدرب. إنها حمدان الأخرى».

«هذا لا يهمني. لا أريد أن أسمع أيًّا منكما».

كنت غاضبة كثيرًا من إيمان بسبب شكواها الدائمة، وعندما عدت إلى الثكنات انفجرت فيها، قائلة:

«إن اشتكيت مرة أخرى حول أي شيء فلن أكون رفيقتك العسكرية بعد الآن».

إيمان: «لكن لماذا لم يخبرونا بوجود جنود جدد؟ كيف من المفترض في أن أعرف أنهم يفعلون شيئًا رسميًّا؟».

«أنت في الجيش يا إيمان، والجيش لا يشبه الحياة المدنية، فهم لن يخبروك بكل شيء يفعلونه».

«لكني كنت خائفة».

«فقط توقفي عن الشكوى المتكررة، اتفقنا؟».

ذهبنا إلى التدريب البدني، ثم استحممنا، وخضعنا للتفتيش. قال المدرب العسكري (برانون) لي:

«حمدان، أحضري رفيقة عسكرية، وتعالي لتتحدثي معي في مكتب معهد اللغات».

كان يبدو متضايقًا قليلًا.

«تعرفين يا حمدان، أن جميع الجنود يرتدون الملابس نفسها، فهذا ما اعتدنا عليه دائمًا، أنا أفهم أنك مسلمة، ويمكن أن تشعري ببعض الخجل من ارتداء الزي الرياضي الصيفي، لقد كنت أتبع الأوامر العسكرية فحسب، ولم أقصد أن أسبب لك الضيق».

obeikandl.com

لم يكن اعتذاره يشبه اعتذار شخص مدني، لكني قبلته على أي حال.

وبعد مدة قصيرة من ذلك أتى الرقيب الأول إلى ثكناتنا، بينما كنا مصطفين في تشكيلة لننزل الدرج، وطلب مني أن آتي للتحدث معه.

«حمدان، إن كنت غير مرتاحة بارتداء السراويل القصيرة (الشورت القصير وتيشرت أكمامه قصيرة) فلست مضطرة إلى ارتدائها».

«حسنًا أيها الرقيب الأول. شكرًا لك».

أخبرت (عطى)، وذلك اسمها العائلي وإيمان بأنه يمكننا ارتداء الأزياء الرياضية الشتوية إن أردنا، فضحكت (عطى) قائلة:

«لا بأس، فأنا أشعر بالراحة وأنا مرتدية السراويل القصيرة».

في النهاية كنت الوحيدة التي قررت ارتداء الزي الرياضي الشتوي، على الرغم من أننا كنا في شهر تموز والجو حار جدًّا في الخارج. ارتدت إيمان و(عطى) الزي الصيفي، لكنهما لم تكونا تذهبان إلى التدريب البدني في معظم الأوقات؛ لأنهما كانتا تجدان دائمًا أسبابًا لتسجلا نفسيهما كمريضتين.

كانت إيمان في عمري نفسه، أو تكبرني بسنة، لكن تصرفاتها جعلتها تبدو أقرب إلى عمر عطى (نحو ١٨ عامًا). فقد كانت كلتاهما غير ناضجتين وغير واثقتين مما تفعلانه، وما تريدانه، ولم تكونا مهتمتين إلا بما أمامهما في هذه اللحظة. أما أنا فكان عليّ أن أنجح هنا، وألا أسمح للمشاجرات الصغيرة أن تقف عائقًا أمام مستقبلي؛ لذلك تصرفت بودٍّ مع الجميع، وكنت حذرة عند اختيار رفيقاتي العسكريات، فلم أرد أن أتورط في أي شيء؛ حتى لا أضع نفسي أمام صرخات المدربين، فأنا حساسة جدًّا.

obeikandl.com